

الجاحظ بين المعرفة والتأليف

الدكتور مصطفى محمود يونس

لقد رزق الجاحظ حظا وافرا من العلم ، وأوتي نصيبا كبيرا من الثقافة ، وحصل جوائز متعددة من المعرفة ، وأتاحت له الحياة أن يكون شيخا من شيوخ البلاغة والفصاحة والبيان .

فهل توفرت للجاحظ اسباب التأليف ؟ وهل اكتملت له العوامل التي خلقت منه مؤلفا عظيما ، وفي ذات المكتبة التي وصل اليها عالمها وأديبها ؟

سؤال يحتاج الى كثير من العناية ليمكن أن تكون الاجابة سديدة وافية ، ذلك أن كثيرا من العلماء النابهيين ، والادباء الممتازين لم تتح لهم الحياة أسباب التأليف ، أو أتاحت لهم الاسباب ، ولكنهم لم يأخذوا أنفسهم بها ، ويعتقدوا توفرها ، فظلت معلوماتهم حبيسة أذهانهم ، لم يضمها كتاب ، ولم يحتو عليها مؤلف ، ولم ينتفع بها من بشى البشر الا من أتاحت له ظروفه أن يعيش على مقربة من أستاذه ، وأن يكون راغبا في تدوين ما يسمع منه ، وما يأخذ عنه ، وقد ينشر التلاميذ ما يسمع أو يأخذ ، وقد يتركه يضيع في زوايا النسيان .

ان يكن ذلك شأن كثير من العلماء النابهيين والادباء الممتازين ، فان حظ الجاحظ كان الى حد كبير يختلف عن هؤلاء فقد أتاحت له أسباب التأليف وكان دريسا على استغلال هذه الأسباب فأنتج هذه

الثروة الضخمة من الكتب ، وخلف هذا العدد الضخم من المؤلفات ، وترك هذه المكتبة العاجزة بألوان المعرفة سواء منها ما حظى بالنشر فاستمتعت بقراءته ملايين الناس ، أو ما ظل مخطوطا فانتفعت به فئة قليلة من طلاب البحث ، وعشاق المعارف ، أو ما ضاع في طريق الوصول إلينا فلم نظفر بلقائه والتمتع بالاطلاع عليه . ان يكن شيء من هذا أو ذاك فان الجاحظ قد أتيح له من أسباب التأليف ما لم يتح لغيره من العلماء ، واستغل هذه الأسباب كما لم يستغلها أحد مثله .

وأول هذه الأسباب التي دفعت بالجاحظ الى أن يكون مؤلفا له شأنه هذه العاطفة القوية التي نشأت بينه وبين الكتاب منذ بدأ يعرف نفسه وأقل ما يقال في هذه العاطفة انها عاطفة حب عميق ملأت عليه كيانه وأسرت منه جوانبه فهو يندفع اليها بكل ما أوتى من قوة لا يدع فرصة دون أن يغتنمها ، ولا فسحة دون أن يقتصصها حتى حين كان يخطو خطواته الأولى في طريق مليئة بالمتاعب مفروشة بالاشواك مقسم القلب موزع النفس بين حاجات أمه ومتطلبات العيش لأسرته وبين ما تنزع اليه نفسه من راحة بين أضياء الكتب وظلال المعرفة وقد أشار الى ذلك المرتضي في سياق ترجمته الجاحظ اذ يقول : انه كان في حداثة مشغولا بالعلم وأمه تموته فجاءته يوما بطبق عليه كرايس فقال ما هذا ؟ قالت : هذا الذي تجيء به فخرج هفتما وجلس في الجامع وهو يس بن عمران جالس فلما رآه هفتما قال : ما شأنك ! فحدثه الحديث فأدخله المنزل وقرب اليه الطعام وأعطاه خمسين دينارا فدخل السوق واشترى الدقيق وغيره وحمله الصالحون الى داره فأنكرت الأم ذلك وقالت : من أين لك هذا ؟ قال : من الكرايس التي قدمتها الى » .

وليس في هذه القصة ما يدلنا على انكارها أو على الشك في جملتها وفي الصورة العامة التي تؤيدها إلينا وهي أن الجاحظ كان في مبدأ حياته موزع الجهد بين مطالب العقل ومطالب العيش ، بين ارضاء همته وتخفيف هموم أسرته الى أن أتيح له أبو عمران فأخذ بيده

وأعانه وبعث في نفسه روحا جديدة حين خفت عنها ذلك الاحساس
 الدائب المسلح المرير بمطالب العيش وضرورة الحياة وسدده في تلك
 السبيل المحببة اليه سبيل العلم والأدب ووجهه الى تلك الغاية
 المرموقة التي كان يهفو اليها وذلك المجد العقلي الذي مضي نحوه غير
 ضائق ولا معوق .

انها الفرصة التي أتاحت للجاحظ لينمي ثروته ، وليضاعف
 معلوماته ، وليتصل بالكتاب الذي أحبه حبا عميقا فيفتنم الجاحظ
 الفرصة ، ويستجيب لهذه المناسبة ويحمد لابن عمران هذه اليد
 الكريمة التي قدمها له ، ثم يمضي الجاحظ في طريقه الى المجد فيتصل
 بسبب آخر من الأسباب التي أتاحت له حياة التأليف ويتصل بأستاذه
 النظام ويرى فيه العقل المفكر ، والمعلم النابه والعالم المدقق الخبير ،
 ويحاول جاهدا أن يسير على نهجه ، وينسج على منواله ، ويقتفى
 أثره ، وللنظام مكانة عالية ، ومنزلة رفيعة بين علماء البصرة
 وشعرائها وهو مع ذلك شيخ من شيوخ المعتزلة ، ورجل من كبار رجالها
 يدافع عن آرائها ، ويكافح في سبيلها ، ويعمل على نشر فكرها
 ومذهبها ومن ثم فكان لزاما على الجاحظ أن ينزل الى ذلك الميدان الى
 جوار أستاذه مدافعا عن آراء المعتزلة وأفكارها ، ومتصديا لكل من
 يعاندها أو يعاديها بل لقد انفرد بآراء خاصة من بين المعتزلة تابعة
 عليها لفيف من الناس وكان لها أنصارها ومريدوها وتلاميذها ،
 وكان الجاحظ لسانا للمعتزلة مدافعا عنها متصبرا لها يوضح مشكلات ،
 ومذاهبها الفكرية والروحية ويقف في وجه من يتعرض للمذهب ورجاله
 ويدافع عن نظرية الحسن والقبح والتعديل والتحوير وخلق القرآن
 وهكذا تجده قد ربي ونشأ في الاعتزال وحضر مجالسه واستمع الى
 المناقشات من حوله واشترك في جدال خصومه فعليه نشأ وعنه ناضل
 وله ألف وان خالف ائمة المذهب في مسائل تبعته فيها فرقة سميت
 « الجاحظية » .

ذلك من شأنه أن ينمى في الجاحظ قوة الحجة ، ويذكى فيه روح
الجدال ويدفعه الى التأليف دفعا ليؤيد فكرة يؤمن بها ، أو يدحض
رأيا يعتقد أنه يخالف الحق ، ويعتمد عن الصواب وهكذا شرع الجاحظ
المعتزلى يراعه البليغ في الرد على خصوم الدين وأصحاب الآراء الضارة
وكل مذهب هدام بل لقد كان يرد على كل قول لا يحالفه الصواب
والحكمة ولو صدر من مسلم سمع من شيخ من شيوخ البصريين أن
الله تعالى جعل نبيه آميا لا يكتب لينفرد بتعليمه الفقه وأحكام
الشريعة ولقصره على معرفة مصالح الدين وليجعله نبيا ويتولى أمر
تعاليمه بما هو أركى وأسمى فانما نقصه ليزيده ومنحه ليعطيه .
ولم يرض الجاحظ بهذا القول فقال : وقد أخطأ هذا الشيخ ولم يرد
الا الخير وقال بمبلغ علمه ومنتهى رأيه ولو زعم أن أداة الحساب
والكتابة وأداة فرض الشعر كانت فيه تامة وافرة مجتمعة كاملة
ولكنه صلى الله عليه وسلم صرف تلك القوى وتلك الاستطاعة الى
ما هو أركى بالنبوة واشبه بمرتبة الرسالة لما كان ذلك مانعا من
وجوب تصديقه .

وهكذا كان الجاحظ قوة متدفقة قوية في الدفاع عن الدين وفي
دفع خصومه عن حياضه وفي رد الآراء الخاطئة وتصحيح الافهام
في كل ما يتصل بالاسلام . ورجل هذا شأنه يتصدى لنشر دعوة .
ويتقدم ليقود جماعة ، هو في حاجة الى قلم طيع ليسجل آراءه
وأفكاره ، ويدون انطباعاته وخلجاته ، ويعلن فكرته في قوة وصراحة
ووضوح . على أن هناك سببا ثالثا من الاسباب التي أتاحت للجاحظ
عياة التأليف وهو لا يقل عن السببين السابقين . ذلك هو مجتمع
البصرة فقد كان يروج بالحركات الفكرية ، ويضطرب بالآراء
المتحررة ، والمذاهب المختلفة ، وكان المجتمع مشدودا الى هذه
الحركات العلمية والادبية بكل أعصابه وانتباهه ، يقرأ كل جديد ،

ويشارك في كل رأى ، ويهتم بكل قضية معروضة ، ناقدا تارة ،
ومعارضاً أخرى ، ومؤيذا مرة ثالثة . ان مجتمعنا هذا شأنه يتصل
بعلمائه وأدبائه ، ويرتبط بشعرائه ومفكره ، ويجذب نفسه اليهم
أو يجذبهم الى قضاياهم ومشكلاته لا شك أنه يدفع الأدباء والعلماء
المفكرين الى أن يعيشوا معه ، يرتقون بأفكاره ويتسامون بعاطفته ،
ويبدونه بمزيد من الفكر الراقى ، والعلم السديد .

وهكذا وجد الجاحظ نفسه مفكر هذا المجتمع وأديبه يحس
باحسانه ويشعر بشعوره فهو أقدر على تصوير الآمه وآماله وأجدر
به أن يسهم جاهدا في حل مشكلاته . وفي رأى أن الجاحظ لم يخل
على مجتمعه في ذلك المجال بالقدر الذى أتيح له من الفهم والوعى
والادراك ، وبالدرجة التى وصل اليها من البلاغة والفصاحة والبيان ،
وبالمقدار الذى أوتي به من الحجة والمنطق وقوة التعبير .

ولست أنسى في مجال البحث عن الأسباب التى أتاحت للجاحظ
أن يكون مؤلفا له شأنه ذلك الهامل النفسى الذى سيطر على الجاحظ
طوال حياته فقد كان طلعة تواقا الى المجد ، هيا لا الى أن يقتصد
مكانه في الصدارة من أعلام الرجال ، ولم يتخل عنه ذلك الخلق ، أو
يتخل هو عن ذلك الخلق حتى بعد أن فتحت عليه أبواب الخير ، ووصل
الى ما لم يكن يحلم به في طفولته أو صباه . دخل عليه صديق له
فسأله كيف حالك يا أبا عثمان ؟ فقال الجاحظ : سألتنى عن الجملة
فاسمعها منى واحدا واحدا حالى أن الوزير يتكلم رأى وينفذ أمرى
ويواتر الخليفة الصلات الى ، وأكل من لحم الطير أسمنها وألبس من
الثياب أفخرها وأجاس على ألين الطبرى وأتكى على هذا الريش
ثم اصبر على هذا حتى يأتى الله بالفرج فقال له سائله : الفرج
ما أنت فيه . قال : بل أحب أن تكون الخلافة لى ويعمل وجهه بن
عبد الملك بأمرى ويختلف الى فهنا هو الفرج .

ان رجلا يحمل بين صدره هذه النفس الطموح المتوثبة ، ويضع أمامه هذه الآمال البعيدة الواسعة لهو رجل يضيق به مجتمع البصرة ، وينزع الى مجتمع أوسع ، يرضي فيه نفسه المتطلعة الى المجد ، ويشبع فيه غرائزه المتشوقة الى العلا ، ولم يكن هناك سوى بغداد عاصمة الحكم ومقر الخلافة يتشبع فيه هذه النزعة ، ولتروى منه هذه الغلة ولكن كيف السبيل اليها ، وما الطريق الذي يمكن أن يربطه بها ، ان الجاحظ لا تعدمه الحيلة الى ما ينبغي ، ولن تقتصه الوسيلة الى ما يريد فهو يتخذ من التأليف طريقا يبلغ به الى غايته ، ويحقق من أهدافه ويصل عن طريقه الى ما يجب من شهرة وذبوع ، ويرجو من مكانة وسمو ، ويأمل من جاه ونفوذ وكذلك يسلك الجاحظ طريقه الى الرفعة وحقق لنفسه ما تصبو اليه من مكانة وسلطان .

تلك أهم الاسباب التي جعلت من الجاحظ مؤلفا عظيما ، وخلقت منه الكاتب الماهر والاديب القدير . ولنا أن نسأل بعد ذلك فيم ألف الجاحظ وما منهجه في التأليف ، أو بمعنى أوضح في أي ألوان المعرفة ألف الجاحظ كتبه ، وما الأسلوب الذي انتهجه الجاحظ في كتبه ومؤلفاته ؟

ليس من الحق أن نقول ان الجاحظ اختص بالكتابة لونا من ألوان المعرفة دون لون آخر فقد كتب في الفقه والميراث والمنطق والتوحيد والبلاغة والادب والفلسفة والسياسة ، والاخلاق والاقتصاد والنبات والحيوان والقصص والتاريخ وبذلك يكون الجاحظ قد طرق أبواب المعرفة جميعها ، ونزل الى كل ميادينها يؤلف في كل فرع ويكتب في كل جانب حتى قيل ان مؤلفاته قد وصلت ثلثمائة وستين مؤلفا .

وقد ترك الجاحظ أثرا فكريا وأدبيا ودينية نالت إعجاب الباحثين

في تاريخ الفكر العربى ولكن ضاع الكثير من هذه الآثار فان ما بقى منها يقوم شاهدا على ما كان للجاحظ من عاكة علمية ، وفكر ناضج ، ويراعقوية اذ كان أكثر الناس حبا للقراءة والكتابة يقول عنه المسعودى « لا يعلم أحد من العلماء أكثر تأليفا منه » وهو أحد أربعة من معاصرين اشتهروا بكثرة التأليف بل هو أكثرهم تأليفا منهم هشام الكلبى وقد بلغت مؤلفاته حوالى مائة وتسعة وثلاثين مؤلفا ، وأبو عبيدة الذى بلغت مؤلفاته نحو مائتى مؤلف ويقول عنه الجاحظ « لم يكن في الارض خارجى ولا جماعى أعلم بجميع العلم فيه » ثم المدائنى وكتبه نحو المائتين ويقول المسعودى عنه : انه كان كثير الكتب الا أنه كان يؤدى بها سمع .

وكان يقال : أربعة لم يلحقوا ولم يسبقوا : أبو حنيفة في فقهه والخليل في أدبه والجاحظ في تأليفه وأبو تمام في شعره .

وقال ابن العميد : ثلاثة علوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس أما الفقه فعلى أبى حنيفة وأما الكلام فعلى أبى الهذيل وأما البلاغة والفصاحة واللسن والمعارضة فعلى الجاحظ . وكان من المعجبين به المقدرين له الذاهبين مذهبه . وأزرى رجل بالجاحظ في مجلسه فسكت عنه ثم قال : لم أجد أبلغ من تركه ولو وافقته لنظر في كتبه وصار بذلك انسانا ، ان كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والادب ثانيا .

ان الحديث عن مؤلفات الجاحظ حديث طويل ، ولو رحننا نعرض لها ألف وكتب ونناقش كل ما سجل ودون لامتد بنا البحث ، وشط بنا الحديث ولكن الذى يعتنينا في هذه العجالة أن نحدد نهج الجاحظ في الكتابة ، وأن نوضح أساوبه في التأليف .

لقد كان اتجاه الجاحظ الى صناعة التأليف والكتابة من الإحداث

البارزة في تاريخ الكتاب العربى ومن الحدود الظاهرة في تطوره فقد
خطا به خطوة جديدة ، وسلك فيه مسلكا جديرا بذلك العقل المفكر
كانت صناعة التأليف لا تزال تخطو خطواتها الاولى ، لم تنهج لها
سبيلا واضحة مرسومة معبدة اذ كانت لا تزال حيلة على غيرها ،
معلقة بهمالس الدرس والمناكرة والمناظرة فهي الى طور البدوين
اقرب منها الى طور التأليف فلم تصبح بعد أمرا مستقلا تمام
الاستقلال فيعدها أصحابها بهذا الشأن بل هي تدوين لاصل ما تقوم
به هذه المجالس وما يدور عليه حديث أصحابها هذا الى أن فن
الكتابة كان لا يزال يتعثر في قضاء حاجة العلماء والادباء وهذه اللغة
التي طاعت وسلسلت وانقادت لالسن الخطباء والمتكلمين كانت
لا تزال نافرة متأبية على أقلام الكتاب والمؤلفين وليس كل من يملك
القدرة على الكلام والجدل والخطابة يملك بذلك القدرة على التأليف
والكتابة وهكذا كان الكتاب العربى في ذلك العهد جافيا مقتضيا
لا رونق له ولا بهاء فيه والى هذا الطابع يشير أبو الحسن الاخفش
حين قال انجأه له : « أنت أعلم الناس بالنحو فلماذا لا تجعل كتبك
مفهومة كلها ؟

وما لنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها وما بالك نقدم بعض
العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ قال : أنا رجل لم أضع كتبى هذه
لله وليست هي من كتب الدين ولو وضعها هذا الوضع الذى تدعونى
اليه قلت حاجاتهم الى فيها وانما كانت غايتى المنالة وأنا أضع
بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعوهم حلوة ما فهموا الى التماس
ها لم يفهموا وأنا قد كسبت في هذا التدبير اذ كنت الى التمسك
ذهبت . ولكن ما بال ابراهيم النظام وفلان وفلان يكتبون الكتب لله
بزعمهم ثم يأخذها بثلثي في « وافقته وحسن نظره وشدة عنايته
ولا يفهم أكثرها » فالأخفش يشهد في هذه العبارة أن الغموض هو

طابع التأليف في عصره وان كان يلتمس لنفسه العذر فيه بأنه تدبير قصد اليه قصدا لا ضرورة حمل عليها حملا وما أكثر ما ينخدع الناس في خاص أمورهم وفي تفسير تصرفاتهم .

كذلك كانت صناعة التأليف والكتابة في ذلك العصر الى أن عالجها الجاحظ وتهيأ لها فاعتبر الكتاب شيئا مستقلا وصورة كاملة في نفسها تؤدي وظيفتها منفردة عن صاحبها لأن شيئا تابعا له ملقا به ومن ذلك جاء الكتاب الجاحظي نمطا جديدا في التأليف. يجمع بين بسط العبارة وجمالها ويتجه الى جبهة القراء على اختلاف قواهم ومداركهم الا الى طائفة خاصة منهم فهو عاى خاصي وهذه نظرة جديدة الى الكتاب العربى في ذلك الوقت ووضع له في موضعه الخاص به .

وقد مضى أبو عثمان على ما ينبغى أن يكون عليه أسلوب الكتاب اذ يقول : « وليس الكتاب الى شيء أحوج منه الى افهام معانيه حتى لا يحتاج السامع لما فيه من الروية وبحتاج من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشو وبحطه من غريب الاعراب ووحش الكلام وليس له أن يهذب جدا وينقحه ويصفه ويروقه حتى لا ينطق الا بلب اللب وباللفظ الذى قد حذف فضوله وأسقط زوائده حتى عاد خالصا لا شوب فيه فانه ان فعل ذلك لم يفهم عنه الا بأن يحدد لهم افهاما مرارا وتكرارا لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام وصارت افهامهم لا تزيد على عاداتهم الا بأن يعكس عليها ويؤخذ بها » .

وهكذا كان منهج الجاحظ في كتبه بساطة في اللفظ ، وسهولة في التعبير وايضاح للمعنى في غير تعقيد ولا ابهام ، وليس معنى ذلك أنه كان يميل الى الابتذال في القول ، او التفاهة في الاسلوب

ولكنه كان رائع المعنى قوى العبارة يعرف كيف يجيد الحديث ، ويختار اللفظ وينتقى الكلمة المناسبة للمعنى المناسب .

اتخذ الجاحظ من سلطان العقل أساسا لبحثه العلمى ، فهو يدعو الى التفكير ويهتم بالمنطق ، ويرفض في اصرار وقوة كل أسطورة لا تتفق مع سلامة العقل ، أو خرافة لا تثبت لقوانين العلم يقول في بعض كتاباته « أكثر الناس سمعا أكثرهم خواطر ، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكرا ، وأكثرهم تفكرا أكثرهم علما وأكثرهم علما أرجحهم عملا كما أن أثر البصراء رؤية لأعاجيب أكثرهم تجارب » . ويمضي في ذلك الى حد أنه يرفض الاعتقاد على الحواس وحدها .

وسبيل الجاحظ في أثناء بحثه أن يتحرر من المألوف ، ويتجرد من التقليد أثناء بحثه ، ويحاول أن يصل الى الحقائق بفكره المجرد ، ورأيه الخالص ، وتجربته الأكيدة ، فلا يخضع لرأى سابق ، ولا يتأثر بفكر سالف ، وبذلك يرى الحقيقة ناصعة ، ويصل الى ما يريد أن يصل اليه بجهد وتعبه وعنايته وهو بهذا يفتح باب التجديد واسعاً على مصراعيه أمام أى باحث أو عالم ويقول في ذلك : « اذا سهت الرجل يقول : « ما ترك الاول للآخر شيئا فاعلم أنه ما يريد أن يفلح » ثم هو يهتم بالتجربة والملاحظة ، ويدعو الى التأمل والتفكير فهو يقول « لا تشفينى الا الملاحظة » وكان يتخذ من الملاحظة والتجربة أسلوبا للوصول الى الحقائق ، وطريقا للتأكد من المتعرفه فهو يذكر آراء العلماء في أن عرق الخال أنزع من عرق العم وأن نصيب الامهات في الأولاد أكثر فيقول : ان أكثر ما تلد الأمهات فانما أردت أن تعرف حق ذلك من باطله فاحص سكان عشر دور من يمينك وعشر من شمالك وعشر من خلفك وعشر من أمامك فانظر ايها أكثر رجالهم ام نسأؤهم ، وبذلك يتخذ من التجربة أساسا للدراسة ، ومن الملاحظة

سبيلا للمعرفة ، ألا يفوته أن ينظر الى الحيوان في نشأته وموطنه
وخصائصه ، ويراقب النبات في نهوه وازدهاره واثماره ، ويشاهد
الطير في غدوها وزواحها ومبيتها واوضاعها ، ثم يصدر أحكامه ،
ويسجل ملاحظاته ، ويدون آراءه فتأتى في أقرب صورة الى الحقيقة
ان لم تكن هى الحقيقة ذاتها وكان الشك سبيل الجاحظ الى اليقين
ولعله تأثر في ذلك بأستاذه النظام فقد كان النظام يقول « الشك
أقرب اليك من الجاحد ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ولم
ينقل أحد من اعتقاد الى اعتقاد غيره حتى يكون بيتهما حال شك »
وعلى ضوء ذلك سار الجاحظ حين يقول : أعرف مواضع الشك وحالاتها
الموجبة له ليتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلم
الشك في المشكوك فيه تعلمًا ، فلو لم يكن في ذلك الا تعرف التوقف
ثم التثبت لقد كان ذلك مما يحتاج اليه ، ثم اعلم أن الشك في طبقات
عند جميعهم ولم يجمعوا على أن اليقين طبقات في القوة والضعف ،
وقد شك الجاحظ في كل خبر تناقض واستمال وفيما امتنع على
الطبيعة وخرج من طاقة الخلقة وقرر أنه اذا خرج الخبر من هذين
البابين وجرى عليه حكم الجواز فالتدبير في ذلك التثبت وان يكون الحزن
في ذلك ضالتك ، والصدق هو بغيتك كائنًا ما كان وقع منك بالموافقة
أم وقع منك بالمكروه ذلك منهج الجاحظ في البحث ، وذلك طريقه الى
المعرفة ثم هو بعد ذلك يدعو الى الجمع بين التخصص العلنى
والثقافة العامة فان ذلك يكسب العلم روحا وقوة ، ويمنحه حياة
وتجددا . ويبعث فيه من الحياة النشاط ما يجعل جماهير الناس تقبل
عليه في نهم ، وتترقبه في لهفة ، وتنتظره في شوق ، وكذلك كانت
كتب الجاحظ ، وعلى هذه الصورة كانت مؤلفاته ، فهو لم يكتبها الا
بعد درس طويل ، وخبرة واسعة وبعد أن عانى من الابحاث ما عانى ،
ولاقى في سبيلها ما لاقى ، وأحاط بأكثر ما كان في أيدي عصره من
ثقافات ومعارف ، وعرف ما كان في زمنه من أعاجيب وحقائق ، ولم

يحتقر شيئاً يدخل في باب العلم والثقافة ولم يستنكف أن يأخذ من صغار الناس كما كان يأخذ من كبارهم ، وكشف كل غماض ، واستقر أكل باب ، واستنبط العديد من مجاهيل العلم كل ذلك في عصر كان الناس فيه يؤثرون السماع من الاسانيد والاخذ عن الرواة ، ويفضلون ذلك على مطالعة الاسفار ، وقراءة دواوين العلم ، لا يحفلون بالتقييد والتسجيل كثيرا ، ويرون على الدوام الاخذ من الافواه ، فوجه أفكار أمتهم وجهة أخرى ورغبها في الكتاب ليكون للناظرين فيه كل ساعة موردا يستقون من معينه ، فصح لقيومه ان يستهروا في اقتناء الكتب ويتباروا في جمع كل وسائل المعرفة من كتاب وأستاذ ورحلة ومشافهة ومناظرة وجدل ورواية ويضمنوا تأليفهم خلاصة ما جمعوه وأحاطوا به من آراء ومذاهب .

وكرر في الناس أن الكتاب يمنح صاحبه تعظيم الجماهير ، وصداقة الملوك ، والثراء العريض ، ومن ثم أولع أبو عثمان الجاحظ بالكتاب وبالتأليف حتى مات وكتبه تنهال عليه وتدفنه بينها .

وتنطفئ بذلك الشعلة التي ظلت قرابة مائة عام أو يزيد متقدة متوهجة تضئ لبنى البشر طريق المعرفة والنور .

د. مصطفى محمود يونس
رئيس قسم الأدب والتدريس
وعميد كلية اللغة العربية